

المرأة حسب القرآن

قلب الإسلام حياة العرب الجاهلية رأساً على عقب ، فقد تغير كل شيء وتبدل ، ومسه التوحيد بالله ، كل شيء في الدين والسياسة وفي النظم الاجتماعية والأخلاق والعادات . وحل محل شتى العقائد والعبادات ، عقيدة جديدة واحدة ، وقام مقام الدول الصغيرة العديدة - التي كانت تتمثل في القبائل - أمة مؤتلفة وحدتها كلمة الله ، واتجهت الغارات والمشاحنات الداخلية إلى فتوح وحروب ضد العالم الخارجي المناهض . وسادت أخلاق كريمة من هدى الشريعة وأثر الرسول . ولم يصمد شيء من حياة الجاهلية سوى مثلها الأعلى فقط ؛ فلقد واصل القوم سعيهم نحو الكمال - أي الشجاعة والكرم والفصاحة وسمو النفس - ولكنهم ما كانوا يهدفون بذلك إلى أن يصبحوا فرسانا كاملين بقدر ما كانوا يرغبون في التقرب إلى الله ورسوله ؛ وظلوا يحفظون للمرأة ما كان لها من حرمة ، يصدرون في ذلك لاعتداد برحمتهم وشهامتهم ، بل عن حرصهم على إرضاء الله واتباع تعاليم الكتاب الشريف . فالقرآن يشتمل على آيات عديدة توصي بالمرأة خيراً ، ولو قد اتبعت تعاليمها ، وأخذ الناس حقاً بما تقتضيه روحها لارتفع شأن المرأة المسلمة مادياً وخلقياً ، ولأتيح بذلك لشعب الإسلام الاحتفاظ بعظمة عصورهم الأولى وكرامتها .

لقد أحب محمد النساء^(١) ، وفهمهن ، وجهد في تحريرهن ، بالقدوة الحسنة من ناحية ، وبتعالجه من ناحية أخرى . فمن الحق إذن أن يعتبر محمد من أوائل زعماء قضية المرأة المناضلين ، إن لم يكن أولم جميعاً . لقد كان يحسن معاملة المرأة — لا زوجاته فحسب بل جميع النساء — فيلقاهن بالبشر والعطف ، ويرعى حرمتهن ، ويرفق بينهن . أجل ، لقد قال : « ما تركت بعدى فتنة أضرب على الرجال من النساء^(٢) » وقال أيضاً : « المرأة كالضلع إن أقمتها كسرتها وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج^(٣) » .

ولكن ذلك — فيما يبدو — لا يعدو أن يكون نصيح فيلسوف مجرب حكيم ، لأنه قال في مواضع أخرى : « خير هذه الأمة ، أكثرها نساء » . وقال : « كلكم راع وكلكم مسئول ، فالإمام راع وهو مسئول ، والرجل راع على أهله وهو مسئول ، والمرأة راعية على بيت زوجها وهي مسئولة . . . الحديث^(٤) » .

وكان يقول لصحبه : « خيركم ، خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائي^(٥) »

(١) قال عليه الصلاة والسلام : « حبيب إلى من دنياكم ثلاث : الطيب ، والنساء ، وقرعة عيني في الصلاة . »

إحياء علوم الدين للغزالي ج ٤ ص ١١٣ . (تحقيق) .

(٢) صحيح البخاري ج ٣ ص ٢٢٢

(٣) ، (٤) صحيح البخاري ج ٣ ص ٢٣٥ .

(٥) الغزالي : إحياء علوم الدين ، الجزء الرابع ، ص ١٣٧ .

ولقد علم الرجال أن « الجنة تحت أقدام الأمهات » ، وكان آخر ما أوصى به صلى الله عليه وسلم ثلاث ، كان يتكلم بهن حتى تلجلج لسانه ونحى كلامه ، جعل يقول : « الصلاة الصلاة وما ملكت أيمانكم لا تكلفوهم ما لا يطيقون ، الله الله في النساء ، فإنهن عوان في أيديكم (يعنى أسراء) أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله »^(١) .

وخير من ذلك للنساء وأبى ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قد حياهن أروع وأرق تحية صدرت عن مؤسس دين من الأديان ؛ فلقد زين بهن دار النعيم ، ولم يصور الفردوس بلا نساء ، وإنما هو فردوس تعمه الحور العين . ولكن على الإنسان قبل أن يتمتع بنعيم الآخرة ، أن يعيش حياته الدنيا . ولقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم للمرأة حياة ميسرة عذبة مستقلة على نحو ما . ولثلا يصدم في عنف لا يطاق آراء معاصريه الذين كانوا يقيمون الحق على أساس القوة ، أقر القرآن أن « الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض »^(٢) .

غير أنه تدرع بتفوق الرجل على المرأة ليفرض على الرجال واجبات ويمنح النساء امتيازات جديدة . فما دام الرجل هو الأقوى والأعلى ، فإن عليه أن يحمل وحده أعباء الحياة ، وما على المرأة إلا أن تعنى بشئون البيت وتربية الأطفال . ولقد أصبح المهر — الذى كان ملكاً لأبي الفتاة —

(١) الغزالي : المرجع السابق ، الجزء الرابع ، ص ١٣٤ .

(٢) سورة النساء الآية ٣٤ .

ملكاً للعروس نفسها^(١) كما أصبح لها نصيب في الركة ، فإن المرأة التي لم تكن حتى ذلك العهد لترث شيئاً من أبويها أو زوجها ، اكتسبت حق الوراثة منهم بفضل الشريعة الجديدة^(٢) .

وما دامت النساء ضعيفات ، فمن الواجب حمايتهن . لذلك لزمتم موافقتهن لصحة عقد الزواج ، وكان لمن الحق في رفض الزواج أو قبوله ، وفي الاختيار بين خطابين إذا تعددوا . وما دمن راشدات ، فليتزوجن من يردنه زوجاً ، وليتصرفن في أشخاصهن وفي أموالهن كما يشأن^(٣) . وهكذا امتنع – في نظر الشرع على الأقل – عن أن يكن العوبة تعبت بها أطماع أهليهن ومصالحهم . وتنقل إلينا السنة الشريفة عن الحنساء بنت خزام الأنصارية ، أن أباه زوجها وهي ثيب ، فأتت – رسول الله صلى الله عليه وسلم فرد نكاحه^(٤) .

وكان من الواجب أيضاً التلطف في معاملتهن . قال النبي في الخطبة التي ألقاها في حجة الوداع بمكة (سنة ٦٣٢ م) : « الله الله في النساء ، فإنيهن عوان في أيديكم (يعني أسراء) ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحلتم

(١) سورة النساء الآية ٢٠ .

(٢) سورة النساء الآيات ٧ ، ١١ ، ١٢ .

(٣) قال صلى الله عليه وسلم : « لا تنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا تنكح البكر حتى تستأذن . قالوا : يا رسول الله ، وكيف إذنها ؟ قال : أن تسكت » (تحقيق) .

(٤) ابن سعد : الطبقات ، ج ٨ ، ص ٣٣٤ . انظر منصور فهمي : حال المرأة في تقاليد الإسلام وتطورها ، و (ج ٧ ص ١٨ صحيح البخاري) . (تحقيق)

فزوجهن بكلمة الله»^(١)

ويعلم القرآن الناس أن لكل من الزوجين لدى الآخر حقوقاً من الحب والاحترام المتبادلين^(٢).

ولكن ظلاً قائماً يلوح في هذه الصورة الحميلة ، ألا وهو حق الرجل في تزوج عدة نساء !

لقد تفشى تعدد الزوجات في بلاد العرب منذ أقدم العصور . وقد أسلفنا القول بأن قدماء العرب كانوا يتخذون من الزوجات ما شاءت لهم قدرتهم أن يتزوجوا . وينبغي أن نضيف إلى ما تقدم ، أن نفقات المعيشة حينذاك لم تكن واضحة الحدود ؛ فقد كثرت لديهم البيوت المشتركة التي تعيش في الواحد منها زوجتان معاً أو عشر أحياناً . وفي تلك الظروف ، كان من المخاطرة أن يقدم امرؤ على معارضة الأوضاع الاجتماعية المتأصلة منذ قرون ، فيحاول إلغاء تعدد الزوجات طرفة واحدة . ولذا عالج محمد تلك المشكلة باحتياط وبراعة ، فأنقص عدد الزوجات إلى أربع ، وأثنى على من يكتفي بواحدة.^(٣) وهكذا جاز للمسلم أن يتزوج أربع نساء ، ولكن بشرط أن يتفق عليهن ويعاملهن جميعاً على قدم المساواة المطلقة ، عاطفياً ومادياً على السواء ، أى ينبغي أن يقوتهن ويكسوهن ويسكنهن

(١) إحياء علوم الدين للقرنبي ج ٤ ص ١٣٤ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٢٨ .

(٣) سورة النساء الآية ٣ .

ويجبن جميعاً بطريقة واحدة ، وأن يوزع عليهن في دقة شديدة نفس القسط من حنانه ومحبه ؛ وهذا شرط من المحال تحقيقه ، ولهذا قال : « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » (١) .

ولقد كان علاج الطلاق بالخطة ذاتها . ولعل محمداً قد ود إلغاء هذا العرف الضار بالمرأة فأعلن أن « أبغض الحلال عند الله الطلاق » (٢) ، ونظم الطلاق على نحو أكثر رعاية لمصلحة المرأة ؛ فلم يعد للرجل منذ ذلك الحين حق تسريح زوجته ثم ردها ليسرحها مرة أخرى بحيث يبقيا تحت نيره بصفة مؤبدة (٣) بل حدد له القرآن سبيله في ذلك ، وبين ماله وما عليه بقوله : « الطلاق مرتان فإمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان » وبقوله بعد ذلك : « فإن طلقها فلا تحل له من بعد ، حتى تنكح زوجاً غيره » (٤)

وإلى جانب الطلاق الذي يجوز للزوج وحده - من حيث المبدأ - أن يقره ، أجاز الإسلام الطلاق بناء على رضا الطرفين ، أو حكم القاضي على أثر طلب الزوجة ذلك لأسباب يقرها الشرع (كعدم التكافؤ ، أو التقصير في التزامات الزوجة) .

(١) سورة النساء الآية ٣

(٢) الغزالي - ٢ ص ٤٢ .

(٣) راجع ما ذكرنا آنفاً ص ١٣٥ .

(٤) سورة البقرة : ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

على أن هذه الإصلاحات الكريمة التي استنتت في سبيل الحد من تعدد الزوجات ومن الطلاق ، لم تستأثر - فيما يبدو - بكل رضا الشارع . فقد رأى محمد - بلا شك - أن مبادئه الآمرة بالمعروف نحو النساء ، قد لا يتبعها الرجال ، إذ هم ميالون بطبعهم إلى تأويل القانون على الوجه الذى ينفعهم ، وإلى التمسك بحرفية الكتب المقدسة لا بروحها ؛ ولذلك عهد إلى المرأة بسلاح يحميها - إذا هي أحسنت استخدامه - من ظلم الرجل حماية فعلية ؛ وذلك أنه لما كان الزواج عقداً ، فقد أعلن أنه « لا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة^(١) ». ومنذ ذلك الحين أصبح من الجائز للزوجين عند اقترانهما أن يضمننا العقد نصوصاً في صالح المرأة على الخصوص ، بشرط ألا تتعارض هذه النصوص وشرائع الزواج الأساسية . فلا يمكن الاتفاق مثلاً على زواج التجربة ، أو زواج المتعة أو الشغار . وعلى العكس من ذلك ، فإنه ليس ثمة ما يمنع الخاطب من أن يمنح زوجته ضرة ، سواء أكانت زوجة أخرى أم سرية ، وليس ثمة ما يحول بين الخاطب وبين تنازله عن حق الطلاق جملة ، أو تنازله عنه لزوجه حتى لتستطيع الزوجة أن تفصل زوجها عنها دون أن تستصدر حكماً شرعياً .

وفي أنطاكية كانت الفتاة - عندما تتزوج - يضاف إلى شوارها

(١) سورة النساء الآية : ٢٤ .

معطف أزرق ، ترتديه إذا غضبت من زوجها ، فيصبح بذلك طالقاً . وهذا تقليد ثابت تعترف به سلطات المدينة الرسمية. وإذا كانت المرأة أفقر من أن تقتنى معطفاً أزرق استعارته من امرأة ثرية ، ثم أعادته إليها بعد أن تسجل طلاقها وليست نساء أنطاكية هي اللواتي يزاولن ذلك فحسب ، بل إنه يوجد مثلاً في خيمات قبيلة « أنزه » ، ستارة مرفوعة دائماً ، إذا أنزلتها المرأة كان المقصود أنها تريد الطلاق . وفي قبيلة « التراكمة » ترسل الزوجة التي تلتبس الطلاق رسولا إلى زوجها يقول له : « إني أكرهك » ، وهذا كفيلاً بانفصالها طبقاً لما تواضعا عليه (١) .

ولسنا نطالب بتعميم هذه العادات وبمنح جميع المسلمات حق ارتداء هذا المعطف الأزرق ، فإن الأزرق لون وسيم وقد يستهوى بنات حواء فيسرفن في التدثر به وإن تجريد الزوج من حق الطلاق لترويد المرأة به ، من شأنه الإبقاء على إجراء بغيض بل وتشديده ، مما لا حاجة بنا إلى إيجاده . أليس أبسط الحلول إذن هر إلغاء الطلاق في النطاق الذي لا يتعارض ونص الشريعة القرآنية ؟ إننا نعتقد أنه ليس ثمة ما يمنع من أن ينص في البلاد الإسلامية ، على أنه « فيما عدا الاتفاق على غير ذلك في عقد الزواج يعتبر أن الزوج قد تنازل عن حقه في الطلاق » . وهذا التأويل

(١) فاطمة عليّة هانم ، بنت جودت باشا : نساء مسلمات ، في بعض العادات الإسلامية ، ثلاثة أحاديث . ص ٢١١ من الطبعة التركية ، ص ١١١ و ١١٢ من الطبعة الفرنسية .

يطابق الروح الحقيقية لما يهدف إليه الشارع الأسمى ؛ لأنه يتزرع نزعاً إنسانية تتوخى الإنصاف وتحمى كرامة الزواج . وليس من شأنه أن يلغى الطلاق إلغاءً ، وإنما أن يحد جدياً من انتشاره . والزمن كفيل بإنجاز الباقي . ولسوف يظل باب الطلاق مفتوحاً على كل حال أمام الزوجين اللذين لم يؤلف بينهما الحب أو لم يرزقا أولادا .

° ° °

وكان الحجاب في عصور الإسلام الأولى علامة من علامات الامتياز . فلقد كان النساء يصطنعنه لئلا يخالط بينهن وبين الجوارى اللواتي لم يكن يفوت الشبان أن يتعقبوهن ويستثيروهن . ثم نُمم الحجاب حتى شمل نساء الأرض الإسلامية كلهن ، بغض النظر عن طبقاتهن الاجتماعية وجنسياتهن أو دينهن . ولم يعد الحجاب إذ ذاك هو الحد الفاصل بين الحارية والحرة ، بل بين الذكر والأنثى . وازدادت كثافة الحجاب شيئاً فشيئاً حتى انتهت إلى عزل المرأة .

وأما الأسباب التي تجبذ فرض الحجاب ، فقد أجاد عرضها « ل . فيلارد فرانثيسكو نونيث موليث » في الالتباس الذي رفعه إلى رئيس غرناطة - احتجاجاً على المرسوم الذي أصدره فيليب الثاني سنة ١٥٦٦م بإلغاء بعض العادات الأندلسية - يقول فيه : « ليست إجازة خروج النساء سافرات إلا قصداً إلى إغراء الرجال بالخطيئة ، بما يبدن من زينتهن

وحسنهن وما أيسر أن يلهب ذلك مشاعرهم ، وعمداً إلى حرمان الذميات
من قد يرضون بزواجهن . إن نساءنا ليتحجبن حرصاً على ألا يعرفن
كما تفعل المسيحيات . وذلك احتشاماً يحبتنا كثيراً من المآخذ» (١) .

وها هو ذلك وبعد انقضاء أربعة قرون ، ينشر ذلك الدفاع عن
حجاب المرأة في إحدى صحف القاهرة الصادرة في شهر فبراير سنة ١٩١٤ :
« إن المرأة في نظرنا وردة لن نسمح أن تلمسها الأيدي فتذبل وتذوى .

إنها جوهرة كريمة ، يجب علينا أن نصونها في حرزها ، ولا نستطيع أن
نجلوها للأبصار وحولنا اللصوص اللثام . إنها نبع الفضيلة الذي ينبغي أن
نستره خشية أن تلوثه الرذيلة فينضب معينه ، إنها شرفنا وكبرياؤنا ؛ وشرفنا
وكبرياؤنا أعز علينا من أن ندع الريح تهب عليهما أو أشعة الشمس
تمسهما . وليس حجاب المرأة لسجنها أبداً أو لكبت حريتها ، وإنما هو
الدليل على احترامها ورعاية حرمتها » .

ويزعم أنصار الحجاب وعزل المرأة أن هذين التديبين قد شرعهما
الله ونص عليهما القرآن ، ولكننا نشك في ذلك .

أما عن الحجاب ، فليس في القرآن ما يخول فرضه أو يعذر من يستغله. ولقد
أجمع مفسرو الكتاب على أنه يجوز للمرأة أن تكشف عن «وجهها ويديها» .
أقلاً يمنع الحياء أنصار الحجاب من أن يطالبوا بأكثر من هذا الإجماع؟ (٢)

(١) ل . فياردو : تاريخ العرب والأندلسيين ، ج ٢ ، ص ٢٢٥ .

(٢) انظر قاسم أمين : تحرير المرأة ، ص ٦٨ وما يليها .

وأما عن عزل المرأة ، فقد أوصى به الرسول زوجته وحدهم ، كما جاء في سورة الأحزاب : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء إن اتقيتن » . فلا تعتبرهن طبقة ممتازة من النساء ، وبالنظر إلى شرف مكانتهن ، فرض عليهن محمد واجب البقاء في بيوتهن ، وعدم كشف وجوههن لأجنبي^(١) . كما حرم عليهن أن يتزوجن بعد وفاته . فتلك إذن قوانين استنتت على وجه التخصيص لصون كرامة زوجات النبي . ولقد فهمها أصحاب الرسول على هذا النحو ، لما نرى في أول عصور الإسلام من اختلاط النساء في حرية بالرجال ، واشتراكهن في اجتماعاتهم وندواتهم الأدبية والدينية بل وفي مشاجراتهم . وتشهد بذلك عائشة ، أرملة النبي ، التي اضطلعت بدور هام في المنازعات الحزبية التي تلت مقتل الخليفة عثمان ، وساهمت بصورة فعالة في موقعة « الجمل » . ويشهد بذلك أيضاً هذا الحوار الطلى الذي دار يوماً بين عمر ابن الخطاب وزوجته ، ونقله إلينا الطبرى :

عندما استقبل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب المجتهد الصارم ، رسول سلمى بن قيس ، قال لزوجته وهي وراء ستر : « غداءنا يا أم كلثوم » . فمدت له أم كلثوم رغيفاً بالزيت وسطه قطعة غليظة من الملح . فقال عمر : « أم كلثوم ، هلا شاطرتنا طعامنا ؟ » فقالت : « إني أسمع صوت رجل غريب معك » . فأجابها : « نعم ، غريب » . ويضيف رسول سلمى

(١) سورة الأحزاب ، آية ٣٣ « وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، وأقمن الصلاة . وآتين الزكاة . . . » (تحقيق) .

ابن قيس : ولما علمت زوجة الخليفة أن عمر لا يعرفني قالت : « لو حرصت على أن أقابل الرجال ، لألبسني كما يلبس ابن جعفر زوجته ، أو كما يلبس الزبير زوجته ، أو كما يلبس طلحة زوجته . . » قال عمر : « أفلا يكفيك أن يقال عنك : أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب وزوجة أمير المؤمنين عمر ؟ » والتفت نحوى يقول : « فلتقنع بهذا الخبز ، فلو قد أرادت لقدمت لنا أشهى منه » .

على أن هذا الجدل حول حجاب المرأة وعدم اختلاط الجنسين ، يبدو من نافلة القول ، ولا جدوى منه إلا نظرياً . فلقد انقضى في الواقع عهد سجن المرأة عقاباً لها ، وأصبح الحجاب شفافاً ههنا ، وإذا حرص النساء على التزين به فما ذلك « لأنه يتيح للدميمات فرصة العثور على من قد يرضون بزواجهن » — فلم تعد هنالك دميمات والله الحمد — بل لأنه يتيح للمرأة أن تنظر من ورائه دون أن يراها الناظر ، ولأنه يضمن على حسن النساء ما في غموض السر من جاذبية وسحر أخاذ .

وكذلك لا يجدينا الحديث اليوم عن التسرى ، فقد زال التسرى نهائياً بإلغاء تجارة الرقيق .

وهكذا يتضح لنا أنه من الخطأ إذن ومن الإجحاف ، أن نزع أن « دين الإسلام وحده هو السبب الوحيد لانحطاط المرأة » . وكان أولى بنا أن نعلن أن دين الإسلام قد منح المرأة — منذ القرن السابع — حقوقاً وامتيازات ، ما زالت أورييات القرن العشرين يتزعن إليها . فن

أى عهد ، وعلى أثر أى جهد ونضال ، نالت المرأة حق مزاوله مهنة حرة ، واستطاعت أن تصبح محامية أو طبيبة أو مدرسة ، وأن تلتحق بمعهد الفنون الجميلة ، وأن تعرض لوحاتها فى معارض الصور ؟ . . . ثم أليست المرأة اليوم لا يمكنها أن تتولى أمر ثروتها الشخصية دون تصريح سابق من زوجها ؟ بل إن المرأة التى تزوجت على أساس انفصال أملاكها عن أملاك زوجها ، ليعوزها ترخيص من الزوج إذا أرادت أن تبيع عقاراً .

لقد منح محمد المرأة منذ القرن السابع شخصية خاصة إذن . فلقد اعترف لها — دون أن يجعل منها بصريح القول مساوية للرجل — بحقوق الرجل فعلاً . فالمسلمة أهل لأن ترث وتشهد ، ولأن تتولى أمر ما تملكه ، وهى تستطيع أن تبيع وأن تشتري وأن توصى دون حاجة إلى إذن الزوج ، وتستطيع أن تزاول التجارة . وإن جميع الأعمال والمهن ميسرة لها ، حتى الوظائف العامة ؛ إذ كان من حقها الإفتاء وإدارة المدارس وتعليم الفقه ، وأن تكون قاضية تقيم العدل بين الرجال^(١) .

ولكننا ينبغي أن نعرف بأن ما ينسب للإسلام من مسئولية تأخر المرأة ، ليس كله من قبيل الخطأ ، بشرط ألا نخلط هنا بين الشريعة الإسلامية وبين التأويلات المغرضة المشثومة ، التى تفتقت عنها عقول

(١) يميز الحنفيون للمرأة أن تتولى القضاء المدنى (ك . هيوار : تاريخ العرب ، طبعة ١٩١٣ ، ج ١ ، ص ٣٥٩) .

الناس في عصور الفساد والانحطاط . فقد ظهر التطبيق الخاطئ على المبادئ ، وقدم العرف السقيم على تعاليم القرآن ؛ ومن هنا راح الناظر إلى العادات المنحرفة السائدة ، يتهم الدين زوراً وبهتاناً .

لقد اجتمع الغرور والكبرياء والجهل وعسف الرجال ، واعتمد هذا كله على المثل المأثور في سائر الحضارات العتيقة والذي أقره الإسلام — على النحو الذي بيناه — وهو أن « الرجل أرفع من المرأة » ؛ فأدى ذلك شيئاً فشيئاً إلى استعباد النساء .

لقد استغل الذكر كونه المكاف بقضاء حاجات المرأة ، وبالانفاق عايبها ، فعاملها معاملة الأكبر للأصغر وفرض عليها أن ترضخ تحت سيطرته وأن تظل تابعة له ؛ فلم يتخذ منها معاونة له ، بل غداً ولي نعمتها ، وباتت هي متاعه .

وهناك أسباب أخرى تشرح سر تدهور المرأة المسلمة ؛ فإن حياة الشرق التي يسودها التأمل والسكون ، قد أتاحت للرجل أن يطلق العنان لخياله ، وأن يسترسل في تصور اللذات والمغامرات ؛ ولما كانت المرأة تراود فكره دائماً ، فقد تسلح لمواجهة الأخطار الخيالية التي هي خليقة بأن تعرضه لها ، وقاده ذلك إلى أن ينزلها منزل العجز والرق . وكذلك — وهنا ندع الحديث لبول بورجيه ، إذ يقول : « إذا خبأ الشرقيون نساءهم واستعبدهن ، فما ذلك إلا لأنهم يحبونهن حبا حسيا عنيفاً ، وفي الحس يربض لون من البغض مرتبط بما يكمن فيه من الغيرة الوحشية ؛ وإذا كنا

في العالم اللاتيني - بالرغم مما ندع للنساء من حرية أكبر - لا نقبل دون احتجاج فكرة استقلالهن ونهوضهن بأعمال شخصية ، فما ذلك إلا لأننا نشعر - خلال ما يخالجننا ويرادنا من مختلف المعاني - بشيء مما يشعر به الشرق ؛ وإذا كان الإنجليزي قد أباح للإنجليزية قسطاً أوفر من الحرية ، فذلك لأن عوامل المناخ والجنس والدين قد أمعنت في ترويض خلقه ؛ فاشتهاء المرأة إنما يأتي في المرتبة الثانية في مشاغل الإنجليز .

وهكذا نستطيع أن نستخلص من هذه الدراسة الطويلة ، أن نهضة المرأة المسلمة وعودتها إلى الحياة أمر ممكن لا شك ، ما دام هوانها لم ينشأ عن مصدر إلهي وديني ، وإنما عن إرادة الرجال وحدهم .

ولقد اتجه بالفعل حجاب المرأة وعزلها نحو الزوال ، وولى عهد التسرى ، وقل الطلاق ، ولم يعد لتعدد الزوجات من أنصار إلا في القرى النائية ، وبين الدهماء . ومن المهم أن يتخذ هذا التقدم الاجتماعي إطاراً شرعياً من تفسير المبادئ القرآنية تفسيراً سليماً واسع الأفق .

ولن تلبث المرأة المسلمة حتى تستعيد شخصيتها وكرامتها الأوليين ، متى تحررت من القيود التي ما زالت تشدها ويزعمون أنها دينية ، ومتى ربيت وتعلمت كالرجال سواء بسواء . ولسوف يتجشم الرجال في سبيل تجريد أنفسهم مما يمتلكون - أو مما يملكهم - عناء كبيراً ، ولن يروق لهم أن يشهدوا انهيار النظام الاجتماعي الذي شادوه لمنفعتهم الخاصة ، وأن

يصبحوا مساوين لأولئك اللواتى لم يكن حتى ذلك الحين إلا إماء لهم .
ولكن على ذلك يتوقف خلاص الشعوب الإسلامية ووجودها : فإن نهضة
الإسلام فى نهضة المرأة المسلمة . وما صادفت كلمة « جول سيمون »
تطبيقاً أصدق منه فى هذا المجال ، إذ يقول : « إن تربية الفتاة صناعة
شعب جديد، وتجديد لجميع الشعوب^(١) . وبالمرأة— وقد تربت وتعلمت—
سوف تصنع وتتجدد شعوب الإسلام . وإذ ذلك تستأنف المرأة المسلمة
دق الدفوف بيديها الصغيرتين ، لا استئثاراً لحماس الرجال فى ميدان
القتال — كما فعلت هند وصاحباتها — بل لإيقاظ الشرق النائم ، وإعلان
دخوله ميدان الحضارة، وتسجيل عودته إلى معترك التقدم !

(١) جول سيمون : المرأة فى القرن العشرين